ولا تصاغ فى مثل ، ولا تنقل إلى دائرة القضايا المتعارفة بين الناس فى ملأ الأندية والاجتماع .

وبعبارة أخرى كانت وقفات العقاد دروسا عملية فى استبطان النفوس ، ودروسا فى تحذير القراء من تحويل حالات النفوس إلى ما نسميه معانى وأغراضا . فالمعانى والأغراض قد يقصد بها نوع من الولع بالإثبات أو الإسناد أو الإخبار أو الحكم ، على حين لا يهتم الشاعر أحيانا بأكثر من تحسس البطانة الداخلية التى تتسامى على كل إثبات صريح . هذه حالات الحرية التى كان يتعقبها العقاد ويسميها بأسماء متفاوتة .

من الواضح أن هذا النحو من التأملات كان صالحا لمواجهة طائفة متنوعة من القراء المتخصصين وغير المتخصصين ، ولا ريب كان العقاد يؤمن أن التقريب بين القراء ضرورة اجتماعية يجب أن تؤخذ فى الحساب .

- ٢ -

يجب علينا أن نشفع الملاحظات السابقة بملاحظات أخرى عن العلاقة بين الشعر والمجتمع فى تراث العقاد . والعقاد مولع ـ كما عرفت ـ بالدعوة إلى الحرية ، يقيم لها صرحا كبيرا ، فلا غرابة إذا رأيناه دائم الحديث عن الثقافة الحديثة بوصفها ثقافة حرية . ويكاد العقاد يقرب المسافة بين هذه الثقافة والشعر . ذات مرة خيل إليه أن الشعر فى مصر غريب فقال فى ١٣ مايو ١٩٢٧ م إن التاريخ القديم انقضى بغير هوميروس مصرى يظهر فى طبقات الشعب كما ظهر هوميروس الشعبى فى بلاد الإغريق . . وربما كان لذلك علة واحدة هى الدولة المصرية العريقة الباذخة . فإن ثبوت الدولة المصرية قد ثبت معها دولة الكهانة ، وجبروت القداسة ، فانبسط سلطانها الموروث على عالم الدين ، وعالم المعرفة ، وعالم القدر ، وعالم السياسة . وأصبح الكلام فى الآلهة والملوك والتواريخ حقا موقوفا على الكهان والعلماء الرسميين ، فلا يتسرب شىء من هذه القصص إلى السواد ، ولا يجرؤ شاعر على المساس بتلك الأحاجى والأسرار ، وحيل بين القالة الشعبيين وهذا المجال الذى تسبح فيه قرائح العبقريين ، ويرتفع فيه القول إلى أفق لا تطرقه أغانى السوق ومطالب العيش وهواجس الدهماء .